11 me Année No. 545

Lundi - 13 - 12 - 1943

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٨٠ في مصر والسودان

١٢٠ في سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ١٥ مليما

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٥٤٥ « القاهرة في يوم الإثنين ١٥ ذو الحجة سنة ١٣٦٢ — الموافق ١٣ ديسمبر سنة ١٩٤٣ » السنة الحادية عشرة

الفهـــرس

بين التزمت والاباحة

في قواعد اللغة

للأستاذ عباس محمود العقاد

قرأت بالرسالة مقال الأستاذ الفاضل الشيخ محمود أبي رية عن « عبقرية الإمام » .

وإني شاكر له ثناءه على الكتاب وحسن تلخيصه لفصوله وأغراضه ، ومعقب على ملاحظته الأخيرة في اللغة حيث يقول :

« بقيت أشياء لا بد من ذكرها والإبانة عنها حتى نبلغ من كلامنا ما نريد . ذلك أني عثرت وأنا أقرأ ببعض ألفاظ كنت أقف عندها مثل لفظ (يقلاه ص ٤٠) و (حانقين ص ٥٥) و (فشل ص ٨١ و ٩٦ و ١١٠ و ١٢٦) ؛ وقد رجعت إلى معاجم اللغة التي بين يدي في اللفظ الأول فوجدته من لغة طيء ، وإذن يكون استعماله جائزاً . أما اللفظان الآخران فإني أرجع فيهما إلى الأستاذ العقاد وأسأله : هل يجوز استعمال كلمة فشل في معنى أخفق وخاب ، وأن يأتي اسم الفاعل من حنق على حانق ؟ »

وجوابي : نعم يجوز أن نأتي باسم الفاعل من حنق على حانق ، لأنه لا يكون اسم فاعل إلا إذا كان على هذا الوزن

وجوازه ثابت بالنص وثابت بالقياس الذي لا يرد ، وهو في بعض الأقوال أقوى من النصوص

فالزمخشرى فى كتابه « المفصل » يقول فى باب الصفة المشبهة : « وهى تدل على معنى ثابت . فإن قُصد الحدوث قيل هو حاسن الآن أو غدا وكارم وطائل ، ومنه قوله تعالى وضائق به صدرك ... الخ »

وجاراه موفق الدين بن يعيش شارح المفصل كما جاراه فى هذا الحكم جلة النحاة

فإذا صح فى (كرُم) التى تدل على الثبوت أن يقال كارم للدلالة على الحدوث ، فذلك أصح وأولى فى حنق التى ليس فيها معنى من معانى الثبوت

بل إذا كانت كلمة غداً أو الآن لا تكفى للدلالة على الحدوث ولا تغنى عن الاتيان باسم الفاعل على صيغته الشائعة ، فمن الحق ألا نستغنى عن هـذه الصيغة حين لا تقترن بلفظ يعين الحدوث فى الحال أو الاستقبال

* * *

على أننا نفرض أن النصوص فى كتب النحو لا تقرر هذه القاعدة ولا تثبتها على الوجه الصريح الذى قدمناه

بل نفرض أن النصوص قد وردت بمنع «حانق» وما شابهها وجزمت بخطئها على طريقة النحاة أحيانا فى تخطئة بعض الصيغ والأوزان ، فمن الواجب فى هذه الحالة على خادم اللغة العربية أن يخالف النحاة ويخالف السماع الناقص تكملة له بالقياس الصحيح الذى لا محيد عنه

إذ ليس من حق لغة من اللغات أن تضطر كاتباً بهـا إلى الأخطاء فى معناه

وليس من حق لغة من اللغات أن تبطل الفارق بين معنيين مختلفين ثم تمنعنا أن ننشىء هـذا الفارق لضرورة الصـدق فى التعبير

فهناك فارق بين من يحنق من حادث يعرض له وبين من يلازمه الحنق فى طباعه وأخلاقه

فإذا قلت عن رجل إنه «حَنِق» وعنيت به أنه دائم الحنق كما تدوم الصفات المشبهة ؛ فمن الواجب أن أقول : « هو حانق من كذا » ، إذا كان الحنق يفارقه بعـد ذلك ، ولا يلازمه فى طباعه وأخلاقه

وإذا قلت إنه «حَنِق» وعنيت به ما نعنى باسم الفاعل وجب أن نقول شيئاً آخر إذا عنيت أنه متصف بطبع الحنق فى عامة أوقاته

وليس فى وسع لغة ولا فى وسع اللغات جميعاً أن تفرض على كتابها الخطأ واللبس فى التعبير ، ثم تصدهم عن تصحيح الخطأ وجلاء اللبس بتصرف لا يخرج بهم عن قياسها ولا يخل بأصولها المرعية فى أعم ألفاظها

فالنص يجيز الصيغة والقياس يوجبها عند منع النص وهو بحمد الله غير مانع

وإننا لخلقاء أن نغبط أنفسنا على أن اللغة العربية «منطقية» فى إجراء القواعد على الأوزان حيث تتشابه المعانى وتتخالف أوزان ألفاظها

فقد يُحمل الشيء على غيره فى المعنى فيجمع كجمعه . وانظر مثلاً ماذا بلغ من هـذه النزعة « المنطقية » فى أوزان الجموع وهى التى لا تجرى على وزن واحد كصيغة اسم الفاعل ؛ فليس فى اللغة « هليك » بمعنى هالك ولا جريب بمعنى أجرب أو جربان أو جرب ، ولكنهم يقولون هلكى وجربى قياساً على قتلى وجرحى ولدغى ، لأنها جميعاً تدل على داء أو بلاء ، وهـذا هو منطق النحو العربى الذى ينطلق أحياناً مع المعانى ولا يتحجر أبداً مع الحروف

* * *

أما « فشل » بمعنى أخفق فلها حكم آخر . فهذه الكلمة من الاستعمال الحديث الذى شاع حتى غطى على معنى الكلمة القديم ، مع تقارب المعنيين حتى ليجوز أن يحمل أحدهما قصد الآخر ، لأن التراخى والضعف والخواء قريبة كلها من الحبوط والإخفاق

وتجدد المعانى على حسب العصور سنة لا تحيد عنها لغة من اللغات ، وفى مقدمتها اللغة العربية

فلو أننا أخذنا ألف كلمة من المعجم وتعقبنا معانيها فى العصور المختلفة لما وجدنا خمسين أو ستين منها ثابتة على معنى واحد فى جميع العصور

وربما غلب المعنى الجديد وبطل المعنى القديم وهو أصيل فى عدة كلمات

خذ مثلاً كلمتى الجديد والقديم ، وكيف ظهرا ، ثم كيف

تحولا إلى الغرض الذي نعنيه الآن .

فالثوب « الجديد » هو الثوب الذي قُطع حديثاً من جَده فهو جديد أو مجدود ، وكانوا يقطعون المنسوجات عند شرائها ، كما نقطعها اليوم ، فيسمونها جديدة من أجل ذلك

ثم نسيت كلمة الجديد بمعنى المقطوع فلا ينصرف إليها الذهن الآن إلا بتفسير أو تمييز ، وأصبحنا نعبر بالجدة عن أمور لا تقطع ولا هي من المحسوسات ، فنقول : « المعنى الجديد » والفكر الجديد ، وما شابه هذه الأوصاف

وكانوا يقولون تقدم فلان أي مشى بقدمه ، ثم ضمنوا تقدمه معنى سبقه ، فأصبح السابق هو القديم ، وأصبح الزمن القديم هو الزمن السابق ، كما نفهمه الآن

وقد نسي الناس « كتب البعير » بمعنى قيده ، وأطلقوها اليوم على الخط في الورق ، وهو في الأصل مستعار من التقييد

ونسي الناس « خجل البعير » بمعنى تحير واضطرب ، وأصبحوا يستعملونها « للحياء » الذي شبه بالخجل ، لأنه يدعو إلى الحيرة والاضطراب

وكل أولئك لا ضير منه على اللغة كما رأينا ، بل هو مادة إنشاء وابتكار وتنويع

والأستاذ الفاضل « أبو رية » يأخذ بالشيوع قاصداً أو غير قاصد حين يقول « المعاجم » ، وهي جمع معجم بضم الميم ، والمعجمات هي الجمع الذي يرتضيه المتزمتون ولا يرتضون غيره

* * *

إلا أنني هنا أنكر الإباحية العمياء ، كما أنكر التزمت الأعمى

وعندي أنه لا يصح إلا ما أمكن أن ينطوي في قاعدة من القواعد المعروفة ، أو أن يؤدي المعنى أداء لا يناقض العقل والقياس

ومن أمثلة ذلك أنني كنت أشهد منذ أيام رواية «قيس ولبنى» للشاعر المجيد عزيز أباظة بك ، فأعجبت بسلامة اللغة وصحة العبارة ، ولكني لاحظت أنه استعمل كلمة « تضحية » بمعنى فداء أو خسارة ، كما نستعملها نحن الآن

والتضحية عند العرب هي ذبح الشاة أو غيرها في وقت الضحى ثم أخذت معنى الفداء أو القربان ، لأن الناس ينحرون ذبائحهم في الضحى يوم عيد النحر الذي عرف من أجل ذلك بعيد الضحية

فإذا كنا نحن المتكلمين — ونعني أبناء العصر الحاضر — فلا ضير من تضمين الكلمة هذا المعنى بعد أن أخذته باستعارة معقولة ، وكسبته بالاستعمال المتفق عليه بيننا

ولكننا إذا جعلنا العرب في عصر «قيس ولبنى» يستعيرون هذا المعنى ، وهم لم يستعيروه ، فذلك خطأ في التاريخ وليس بخطأ في اللغة وكفى

والاعتراف « بالتطور » في المعاني والاستعارات لا يقتضي أن نخالف الحقيقة التاريخية

على أنني حين استعملت كلمة فشل لم أكد أخرج بها عما اصطلح عليه الأولون

فقلت : « يحاول الغلبة من حيث فشل » ، ولو جعلت فشل هنا بمعنى ضعف لكانت مقابلة للغلبة أحسن مقابلة

وقلت : « ولا طائل في البحث عن علة هذا الخذلان الصريح ، أكان هو الطمع في الملك بعد فشل علي ، أم النقمة على الأشتر » . فلو أنك قلت بعد « ضعف » علي لاستقام هنا التعبيران القديم والحديث

وكذلك قولنا : « مُني بالفشل لأنه عمل بغير ما أشار به أصحابه الدهاة » ؛ فإن التعبيرين فيه يتلاقيان

كذلك قولنا : « ولكنها خطة سلبية لا يمتحن بها رأي ولا عمل ، ولا ترتبط بها تجربة ولا فشل »

فليس المتزمت قديم أن ينكر موقع هذه الكلمة في حيث وضعناها من هذه العبارات كلها ، وإن كنا مع هذا لا نحرم إطلاقها على معنى الإخفاق الذي لا يحتمل تأويلا بمعنى آخر ؛ وكل ما ننكره أن تأتي بكلمة «فشل» فتطلقها على معنى القوة والنجاح ، أو معنى يناقض الضعف والتراخي المقصودين بها قديماً ؛ أو أن تأتي بهذه الكلمة فتضعها على لسان علي بن أبي طالب ، أو رجل في زمان سابق لزماننا الذي أعارها ما نفهمه منها الآن على الشيوع والتواتر

وليس الخطأ في تجديد المعاني على حسب العصور ، لأنه سنة لم تفلت منها كلمة في لغة من اللغات إلا وهي على موعد من تجديد يأتي بعد حين

إنما الخطأ هو إنكار هذه الحقيقة ، وهي تصادفنا في كل ما نقرأ ونكتب بالعربية وبغير العربية

ونحن على طريق السلامة ما أبحنا مبصرين وتزمتنا مبصرين ، وحينئذ لا نكون إباحيين ولا متزمتين ؛ بل نجري على السواء الذي نسلكه مهتدين

عباس محمود العقاد

مسابقة الأدب العربي

ديوان علم الدين المحيوى

للدكتور زكى مبارك

غرائب التاريخ الأدبى

إن تاريخ اللغة العربية أعجب من العجب ، فقد مر بها عهد قدرت فيه على أن تغزو قلوباً كانت من الجفاء بمكان . ونستطيع أن نحكم بأنه لم يتفق لأية لغة من اللغات الغنية أن تجتذب الغرباء كما اتفق ذلك للغة العربية . وصحة هذا الحكم فى غاية من الوضوح والجلاء ، فالإنجليز مثلاً سيطروا على كثير من بقاع الأرض ، ومع هذا لم يتيسر النبوغ فى الأدب الإنجليزى فى البيئات الأجنبية لغير آحاد . وكذلك يقال فى الأدب الفرنسى ، فالنبوغ فيه مقصور على أهله ، ولم ينبغ فيه من الأجانب غير أفراد

وقد قلت مرة إن الفرنسيين لا يعترفون بالأدب البلجيكى ولا يمدونه من الأدب الفرنسى إلا بتحفظ ، مع أن البلجيك يتكلمون بلغة الفرنسيس منذ أجيال

فما هى الأسباب التى جعلت لغة العرب لغة محبوبة يتسابق إليها الأجانب ؟ وكيف أمكن أن تكون الكثرة من أدباء اللغة العربية ترجع إلى أرومات غير عربية ؟

السبب الظاهر هو الإسلام ، وهو دين لا يعترف بالعصبية القومية ، ولا يقيم لها أى ميزان ، فمن حق المسلم فى أى أرض أن يقول إنه من ورثة الرسول ، ومن حقه أن يتسامى إلى المنازل العالية ما دام يعتصم بمبادئ الدين الحنيف

ولكنى أعتقد أن هذا السبب الظاهر تؤيده أسباب خفية موصولة بروح اللغة العربية ، فهى لغة خُلقت للحياة ولم تخلق للموت ، بدليل أنها لم تنهزم بانهزام الإمبراطورية الإسلامية ، وهى إمبراطورية لم تسيطر على العالم سيطرة حقيقية أكثر من قرنين اثنين ، فلو كانت اللغة العربية لم تعش إلا بحراسة الإمبراطورية لوجب أن تزول ، ولكنها لم تزُل ، ولن تزول للغة العربية خصائص ذاتية تستحق الدرس ، فمتى ندرس تلك الخصائص ؟ ومتى نعرف بالبراهين القواطع كيف استطاعت الانتصار على الموت ، مع أنها تعرضت ألوف المرات للموت ؟

هذه قضية تستحق الدرس ، فمتى تُدرَس ؟ ومتى نفهم أن هنالك أسراراً لحيوية اللغة العربية غير الأسرار التى تحدث عنها الأسلاف ؟

فخر الترك

أكتب هذا بعد ساعات قضيتها مع فخر التُّرك ، وهو عَـلَم الدين أيدَمُر المُحيوى ، أحد شعراء مصر فى القرن السابع ، وهو تركى الأصل بإجماع من تحدثوا عن شعره البليغ ، وهم الذين سموه « فخر الترك » لأنه فى نظرهم أشعر من عرفوا من الأتراك فى ذلك الزمان

وقد سكت التاريخ الأدبي عن هذا الشاعر فلم يذكره إلا فى مناسبات قليلة جداً ، ولولا عناية « دار الكتب المصرية » بطبع المختار من شعره لظل من المجاهيل

وهل التفت أحد إلى هذا الشاعر بعد أن نُشرت مختارات أشعاره فى سنة ١٩٣١ ؟

الذنب يقع على رأس دار الكتب المصرية ، فقد غَلَت فى ثمن تلك المختارات فجملته ثلاثة قروش ، وبثلاثة قروش نشترى علبة سجاير ، وهى أنفع من أى ديوان !

مؤلف مجهول

تعب الأستاذ أحمد نسيم رحمه الله فى البحث عن ترجمة وافية لعَلَم الدين المحيوى ، ثم انتهى إلى أنه شاعر نبغ فى منتصف القرن السابع ، وقرر أن ديوانه ضاع ، ولم يبق غير مختارات دوّنها أحد الأدباء المجهولين

وأقول إن فى هذه المختارات قطعة تشهد بأن المحيوى كان شغل نفسه بالتأليف ، على نحو ما كان يؤلف عشاق الأدب فى العصور الخوالى ، فأين الكتاب الذى ألفه هذا الشاعر البليغ ؟

لم يقل أحد إن المحيوى كان مؤلفاً ، ولم يلتفت قارئو ديوانه إلى أنه كان من المؤلفين ، وأنا قد التفتّ إلى هذه الناحية عن غير قصد ، حين رأيته يقول فى إهداء مجموع له إلى الصاحب محيى الدين محمد بن سعيد :

العبد أيدَمُرٌ تطلَّب تُحفةً ... تُكسَى القبول لسيد الأصحاب
فرأى أجل هدية تُهدَى له ... ذَوْبَ النُّهى ونتائج الألباب
فأجال فى روض القرائح فكره ... ثم انتقى منه لُباب لُباب

من طيب نادرة ولطف فكاهة　　وبديع بادرة وحسن خطاب
وسوائر الأمثال قد وشّحتها　　فيه بمعجز سنّة وكتاب

ثم مضى فذكر أن كتابه جمع بين الجد والهزل ، وجمع نوادر الحكماء والبلغاء والخطباء والشعراء والكتّاب ، وجمع بين رقة الحضر وجزالة الأعراب . فأين ذلك الكتاب ؟

نرجو البحث عن هذا الكنز الدفين

طيف البحترى

عند هذا التركى المستعرب أطياف بحترية ، فله قصيدة تضاف إلى ديوان البحترىّ بدون عناء ، لو كان البحترى زار الروضة ورأى المقياس ، مقياس النيل

هى قصيدة قافية تقع فى نحو مئة بيت ، وهى من الشعر الجزل الرصين ، وفيها لفتات فى غاية من الجمال

الروضة والمقياس

نحن اليوم لا ندرك معنى شعرياً لهاتين الكلمتين ، بسبب طغيان القاهرة على الفسطاط ، وهل نعرف اليوم أين الفسطاط ؟

لقد قضى شعراء مصر مئات من السنين وهم يتحدثون عن الروضة والمقياس ، بفضل ماصنعت هاتان البقعتان فى إذكاء العواطف ، وإيقاد القلوب

كان الحديث عن الروضة والمقياس سُنة شعرية . وأنا رحمت البارودى فى دراسات السنة الماضية فلم أقل إنه تحدث عن غرامياته بالروضة والمقياس حديثاً هو المحاكاة لما قرأ من قصائد الشعراء القدماء

وأين القاهرىّ الذى يسأل عن الروضة والمقياس ، بعد أن انتهت حروب العيون والقلوب حول الروضة والمقياس ؟

هل كانت للبارودى غراميات فى هاتين البقعتين ؟

أنا أستبعد ذلك ، وأرجح أنه بكى واستبكى فوق أطلال الذكريات الموهومة لقدماء الشعراء

يوم التخليق

كان للمصريين يوم فى كل عام يسمونه يوم التخليق ، والتخليق وضع الخَلوق على عمود المقياس ، والخلوق هو أنواع من الطيب أشهرها الزعفران

وكان ملوك مصر فى العهد الإسلامى يحرصون على أن تكون لهم آثار باقية بجانب الروضة والمقياس ، وقد اهتم الملك الصالح نجم الدين أيوب فأقام الأبنية الشامخة فى الروضة

« وكانت تسمى جزيرة مصر » وجدد البرج القائم على المقياس ، وانتهز فرصة الفراغ من هذه الأبنية ليحتفل بها فى يوم التخليق

فأين الشاعر الذى يسجل مجد ذلك اليوم المجيد ؟

قصيدة وقصائد

من المؤكد أن ذلك اليوم لم تُنشَد فيه قصيدة واحدة ، وإنما أنشدت فيه قصائد ، فقد كانت مصر تموج بأفواج من الشعراء

وهذا الحديث لا يتسع لأخبار ذلك المهرجان ، فلنكتف بقصيدة التركىّ المستعرب ، أو العربى المستترك ، فما نظن أن له تاريخاً عند الأتراك

هذا الشاعر عربىّ اللغة ، وإن كان تركىّ العرق ، وقد وصف بالعتيق ، فهل كان مملوكاً لأحد الأمراء ؟

إن تعقبنا هذه القضية فسنزعج التاريخ فى مرقده ، وسنثير حوله ضجرات لا تطاق

المهم أن نسجل أن الشاعر كان معروفاً بالجمال والظرف ، وأنه قهر أحد الوافدين من حلب على أن يقول فيه هذه الأبيات :

وكنت أظن الترك تختص أعين　　لهم إن رنت بالسحر فيها وأجفان
إلى أن أتانى من بديع قريضهم　　قواف هى السحر الحلال وديوان
فأيقنت أن السحر أجمعه لهم　　يقر لهم هاروت فيه وسحبان

وعيون الأتراك لها فى الشعر المصرى مكان دل عليه ابن النبيه حين قال :

يصدّ بطرفه التركىّ عنى　　صدقتم إن ضيق العين بُخلُ

والذين رأوا المحيوى لم يفتهم النص على أنه كان فتى خفيف الظل ، ولطيف الروح ، ويكفى أنه عاش فى عصر البهاء زهير ، فتحتُ يدى نص صريح بأن البهاء كان نهاية النهايات فى دمامة الوجه وقبح الخلقة ، واضطراب الملامح ، ومعنى هذا أن البهاء ستر دمامته بحلاوة اللسان ، كما صنع الجاحظ فى قديم الزمان !

القصيدة اليتيمة

هى قافية المحيوى فى تهنئة الملك الصالح بالأبنية التى أقامها فى جزيرة الروضة ، والبرج الذى جدده حول المقياس . ويحسن أن نذكّر قراءنا بأن الملك الصالح بقيت له ذكرى هناك ، فأول جسر على النيل فى مشارف الفسطاط اسمه « كوبرى الملك الصالح » فليترحم عليه من يمر فوق ذلك الجسر فى الصباح

أو في المساء ، وليتذكر كل عابر أن تلك البقعة كانت ملاعب صبابة ومدارج فتون ، بأقوى وأعنف مما كانت حومل والدخول

بدأ الشاعر قصيدته بوصف أيام الربيع وصفاً لو ترجم إلى لغة من لغات الغرب لاعترف الغرب بأن وطن الشعر هو الشرق ، ولننظر كيف يقول علم الدين :

الروض مقتبِل الشبيبة مونقٌ   خَضِلٌ يكاد غضارة يتدفقُ
نثر الندى فيه لآلئ عِقدهِ   فالزهر منه متوج ومنطَّق
وارتاع من مرِّ النسيم به ضحًى   فغدت كمائم زهره تتفتق
وسرى شعاع الشمس فيه فالتقى   منها ومنه سنا شموس تُشرق
والغصن مياس القوام كأنه   نشوان يصبح بالنعيم ويُغبق
والطير ينطق معربا عن شجوه   فيكاد يُفهم عنه ذاك المنطق
غرداً يغنى للغصون فتنثنى   طرباً جيوب الظل منه تشقق
والنهر لما راح وهو مسلسل   لا يستطيع الرقص ظل يصفق
فتملَّ أيام الربيع فإنها   ريحانة الزمن التي تستنشق

إن الصياغة جيدة إلى أبعد حدود الجودة ، بحيث يُظَن أنها لشاعر من صميم العرب لا من الترك ، والمعاني مألوفة ، فقد طاف حولها كثير من الشعراء ، ولكنها مبتكرة مبتدعة ، لأن إحساس الشاعر بها غاية في التوقد ، فهو لا ينقل ما قرأ ، وإنما يصور ما أحس . وهنا سر الابتكار والابتداع ، وهل يمكن الامتراء في أصالة هذا البيت :

والغصن مياس القوام كأنه   نشوان يُصبح بالنعيم ويُغبق

« والنعيم » هنا هو الخمر ، وهي كلمة قليلة الورود في الخمريات ، ولكنها لا تعظم على من ينافس أبا نواس فيقول في هذا القصيد :

وسلافة باكرتها في فتية   من مثلها خلق لهم وتخلق
قد عُتِّقتْ حتى تناهت جدةً   وكذاك يصفو التبر حين يحرق
شربت كثافتها الدهور فما تُرى   في الكأس إلا جذوة تتألق
يسعى بها ساق يهيج به الهوى   ويُرى سبيل العشق من لا يعشق
تتنادم الألحاظ منه على سنا   خد تكاد العين فيه تغرق
راق العيون غضارة ونضارة   فهو الجديد ورق فهو معتَّق
ودنا كما لمع الحسام المنتضى   ومشى كما اهتز القضيب المورق
لا غرو أن ثملت معاطفه فما   ينفك في فيه الرحيق يصفق
وأظله من فرعه وجبينه   ليل تألق فيه صبح مشرق
وكأن مقلته تردِّد لفظة   لتقولها لكنها لا تنطق
فإذا العيون تجمعت في وجهه   فاعلم بأن قلوبها تتفرق

وهذا والله من نفيس الكلام ، كما يعبّر محمد بن داود في كتاب الزهرة ، على روحه اللطيف ألف تحية وألف سلام !

كان أبو نواس يشترى المعاني من الشعراء ، يشتريها بالدنانير ، ويهدد باغتصابها إن رفض البائع ، وكانت حجته أنه الباقي وأن من يساومهم إلى فناء

فما الذى كان يصنع أبو نواس لو عاصر المحيوى وقرأ هذه الأبيات في وصف الخمر والتغزل في الساق ؟

كان يقدم أيامه لا دنانيره ليضيف هذه الأبيات إلى أشعاره في الخمريات

هذه أبيات نفيسة جداً ، والشرح يفسدها ، فلنتركها بلا شرح ، فهي كمقلة ذلك الساق ، تردد لفظة ولكنها لا تنطق !

ثم ما ذا ؟ ثم ينطلق الشاعر في مدح الملك الصالح بأسلوب يشبهه البحتريُّ المتفرد بإجادة المدائح ، فيقول :

إيهِ مديحي لا خُطاك قصيرة   يوم الرهان ولا مجالك ضيق
هذا مقام المُلك حيث تقول ما   تهوى وتطنب كيف شئت فتصدق
في حيث لا شرف الصفات معوز   فيه ولا باب المدائح مغلق

هذا شاعر كان له ملك يتذوق الشعر فأبدع في الغناء ، وطاب له أن يقول :

فالله محمد ثم « أيوب » الذى   أمن الغنىُّ به وأثرى الملق

والشطر الثاني من هذا البيت يصور المجتمع المصري في ذلك الزمان ، فقد كانت الغاية أن يأمن الغنى سطوات الناهبين ، وأن يصل الملق إلى الإثراء

وفي وصف الأبنية يقول المحيوى :

شيدت أبنية تركت حديثها   مثلاً يغرّب ذكره ويشرق
من كل شاهقة تظل تعجباً   من هول مطلعها الكواكب تشهق
لبس الرخام ملوناً فكأنه   روض يفوّفه الربيع المغدِق
واختال في الذهب الأصيل سقوفه   فكأنه شفق الأصيل المشرق
يا حسنها والنيل مكتنف بها   كالسطر مشتملاً عليه المهرق
فكأنها طرف إليه ناظر   وكأنها جفن عليه محدق
وافاه مصطفقاً عليه موجه   فكأنما هو للسرور مصفق

صور من توفيق الحكيم

كتابه «زهرة العمر»

للأستاذ دريني خشبة

لو لم ألق توفيق الحكيم ، ولو لم أقرأ كتابه (زهرة العمر) لظلت صورته التي صورتها له في خيالي هي هي لا تتغير ... وهل يصدق القارىء أنني كنت أتصوره في هيئة سيدي العارف بالله السيد أحمد البدوي ، مع أنني لم أر هذا العاوف بالله إلا في صور تلاميذه وأتباعه ومريديه !

لا يتوهمن القارىء أنني كنت إخال أن لتوفيق الحكيم ذقناً ركبت فيه لحية مستطيلة على هيئة لحى أولئك المريدين الذين أحبهم وأعجب بهم ... كلا ... لقد كنت أتصوره بغير لحية ، أو بلحية ربّاها في فوديه ، تنبت بالدهن من رأسه الكبير !

ولقد ثبتت تلك الصورة التي تصورتها لتوفيق الحكيم في ذهني ... ثم رسخت وزادت رسوخاً عند ما قرأت له (عصفور من الشرق) لسبب واحد . ذلك أنه أهدى هذا الكتاب إلى الست الطاهرة ... السيدة زينب !!

لقد أكد هذا الإهداء العجيب صورة توفيق الحكيم في ذهني ، ولولا ما أعرفه من تاريخ سيدي العارف بالله السيد أحمد البدوي من أنه كان نظيفاً حسن السمت ، لزدت في صورة توفيق الحكيم أشياء وأشياء ... ولا داعي لذكر شيء منها ، اللهم إلا (الشمروخ) الهائل ، والعمامة الكبيرة الخضراء ، والسبحة التي تزن كل حبة من حباتها رطلاً أو ... أقة ... ثم هذه (الفرّاجية) الكبيرة الفضفاضة !

ليتني إذن ما لقيت الأستاذ وما رأيته ! وليتني ما قرأت زهرة العمر ! ليتني ما رأيت الأستاذ الحكيم . لأن هذه الرؤية نسخت نصف الصورة التي تصورتها له ، وليتني ما قرأت (زهرة العمر) ، لأن هذه القراءة نسخت النصف الآخر لهذه الصورة التي كنت أحبها وآلفها ، وأكبر توفيق الحكيم من أجلها ... إن كل ما بقي من تلك الصورة هو هذا التثني الذي يجيده مريدو ولي الله البدوي وقت الذكر ، أما (زهرة العمر) فاليك كيف مسخ الصورة الفقيدة الغالية الخالدة مسخاً :

«... لقد دخلت عليه الخادم في الصباح تحمل صينية الفطور ، فوقع بصرها عليه في السرير ، لا يبدو منه إلا رأس يطل من اللحاف الناصع كأنه رأس يوحنا المعمدان على صينية

وتجاذبت أيدي الرياح رداءه	عنه فظل رداؤه يتمزق
وسرى النسيم وراءهن برفقه	فرفا الذي غدت الرياح تخرق
تلك المنازل ، لاحديث يفترى	مما سمعت ولا العراق وجلّق

ويوم المقياس عند الشاعر هو ثالث العيدين ، ولكنه عيد لا يذهب الناس فيه إلى المساجد ، وإنما يذهبون إلى ملاعب الصَبَوات

يومٌ تجلَّى الدهر فيه بزينةٍ	لما غدا المقياس وهو مخلَّق
هو ثالث العيدين إلا أنه	للّهو ليس على العبادة يُطلَق
جُمعتْ لمشهده خلائقُ غادرت	فيه رحيب البرّ وهو مضيّق
وعلى عُباب البحر من سُبّاحهِ	أممٌ يغص بها الفضاء ويَشرَق
كادت تَبين لهم على صفحاته	طرق ولكن يفتقون ويرتق
خفت جسومهم لفرط صبابة	هزت إليك فما خشوا أن يغرقوا
متجردين عن المخيط لأنهم	حجاج بيتك غير أن لم يحلقوا
طافوا به سبعاً على وجناتهم	سمياً وأرخى ستره فتعلقوا

ومن هذه الأبيات نعرف أن الاحتفال بوفاء النيل كان يشترك فيه السباحون من فتيان القاهرة وفتيان الفسطاط ، ونعرف أن «ثوب البحر» لم يكن معروفاً في تلك العهود ، فقد حدثنا الشاعر أن السباحين كانوا يتجردون عن المخيط ، ومنها أيضاً نعرف أن ألعاب السباحة في ذلك الوقت لم تكن مقصورة على الفتيان المُرْد ، فقد كان يشترك فيها الكهول ، بدليل قوله إنهم لم يكونوا يحلقون ، والحلق هنا لا يراد به شعر الرأس وحده، وإنما يشمل حلق الذقون ، وكان حلق الذقن مما يعيب الرجال في ذلك الزمان

أما بعد فقد ضاق المجال عن تشريح هذه «القصيدة اليتيمة» فلينظر فيها المتسابقون بتحقيق وتدقيق ، لأني أرجح أن يسألوا عنها في الامتحان ، لأنها أعظم أثر خلفه هذا الشاعر البليغ

وليكن مفهوماً عند المتسابقين أن اللجنة لن تسألهم إلا عن المسائل الأساسية ، فمن البعيد أن لا يرد سؤال عن هذا القصيد

لا ذنبَ لي قد قلت للقوم استفُوا

زكي مبارك

الفضة ، ولكن ... حاشا لله أن يكون هذا معمدانا ! صاحب هذا الرأس لا يمكن أن يكون من الآدميين ! ذلك ولا ريب ما جال بخاطر الخادم ، وهى تنظر إلى شعرى الذى هب قائماً إلى ما فوق مسند السرير فى شكل دائرة ، كأنه هالة من (الهباب) الأسود على حافة الوسادة البيضاء ... ثم ذهبت الخادمة تقول لسيدتها مرتاعة : « أتدرين يا سيدتى من حل بدارنا ؟ » فسألتها : من ؟ . فأجابت ! C'est le diable إنه الشيطان ! »

ويقول توفيق الحكيم بعد هذا : ولعلها صدقت ! ولست أدرى ما ذكرنى الساعة بهذه الحادثة التى كدت أنساها . ولم يذكرنى بها حتى خطابك الممتع الذى حدثتنى فيه عن ذلك القسيس الذى ظن « توفيق الحكيم بملابسه السوداء » الشيطان أو المسيح الدجال !... ومن يدرى ؟ لعلى أخذت عن إبليس صورته وهيئته ! لكن ... هل تظن أن لى أيضاً قلبه ؟ لا أظن . وبعد . فلتسكت الطبول ، وليغسل (البلياتشو) وجهه ، فقد انتهى الفصل المضحك[1]

فاللهم لا حول ولا قوة إلا بك ! نتصور الأستاذ الحكيم فى صور الأولياء والصالحين ، وفى مسوح القديسين ... ويصور هو نفسه فى صورة الشيطان الذى له شعر فوق مفرقه كهالة من الهباب الأسود !

لقد أوشك أن يتفق معنا فى صورة يوحنا المعمدان لأنه من القديسين والشهداء ، كما تصورنا ... أما الشيطان ... فلا ! وأما قلب الشيطان فمسئلة فيها نظر ، ونقول ... مسئلة فيها نظر للصورة الثانية التالية :

لقد كنا نؤمن بأن مؤلف أهل الكهف ، ومحمد ، وسليمان الحكيم ، هو من خلق الله ، أى من صنعه ! ولكن . ليتنا ما قرأنا زهرة العمر ! فتوفيق الحكيم يقول فى كتابه هذا « ... إن الله لم يخلقنى ! إنما هو الشيطان أراد أن يخلق طرازاً جديداً من الآدميين . أو (موديل !) من الإنسان ، يضارب به الطراز الشائع المعروف ، فجاء خلقه عجيب البناء غريب التركيب ، به أثر من عبقرية الشيطان ، ولكن به نقصاً ينم عن تخبط فى شئون الخلق والإبداع ، ومع ذلك ، حتى على فرض أن الله هو الذى خلقنى لا الشيطان ، فإنه كان لسوء حظى يضجر ويتبرم كلما جاءه جبريل بلوحى المحفوظ ليعين فيه خطوات حياتى . فقد كان يصرخ فى وجه الملاك الأمين قائلاً : « اذهب عنى الآن ! » فيقول جبريل خاشعاً : « لكن يا إله السموات والأرض ، المدعو توفيق الحكيم ولد وشب ونما وكاد يدنو من الثلاثين ، وهو لم يزل يدب على الأرض ويعيش فيها بالمصادفة . وكلما جئت إليك بلوحه لأجل التعيين ... » فيسمع كأن الصوت العلوى يصيح به : « قلت لك اذهب عنى الآن ولا تشغلنى بهذا المخلوق ! »[1]

ولا شك فى أن الذى خلق جسم توفيق الحكيم ورأسه ، هو الذى خلق قلبه ، ولا شك فى أن الشيطان كان يأوى إلى هذا القلب حينما أملى على توفيق الحكيم هذا التجديف ! والعجيب أن ينسى الحكيم هذا اللغو فيقول عن نفسه (ص٢٤٨) إنه ملاك من ملائكة السماء ! ثم يدعى (ص ٢٥٥) : « أن شخصى غير مفهوم الآن حتى لنفسى ! على أنى أعتقد أنى خلقت للخير لا للشر ، وإذا نفذ إلى الشر فمنكم أنتم يا أصدقائى ومعارفى ! » هكذا يدعى بعد الذى وصم به خلقه أنه خلق للخير لا للشر ! » ثم يختم كتابه هذا الجيل الذى تمنيت أنى لم أقرأه ، بتلك الوثنية : « إنى أومن بأبولون ... أومن بأبولون إله الفن الذى عفرت جبينى أعواماً فى تراب هيكله . إنه ليعلم كم جاهدت من أجله وكم كافحت وناضلت وكددت ... »

ثم اللهم لا حول ولا قوة إلا بك مرة ثانية وثالثة وألفاً وألفين حتى تغفر لعبدك وابن عبدك توفيق الحكيم ! أحقاً إن صاحب هذا التجديف هو ذلك الرجل الذى كنت فى سذاجتى القديمة أتصوره فى صورة سيدى العارف بالله السيد أحمد البدوى ، أو على الأقل فى صورة يوحنا المعمدان كما صور هو نفسه ؟

لا . لا ... لا تثوروا أيها المؤمنون فأنا والله محاميه ولست جلاده ! لقد قال المتهم هذا الكلام وهو فى ظروف تضايق حقاً . وقد صح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ما معناه : أن الزانى لا يزنى وهو مؤمن ، وأن السارق لا يسرق وهو مؤمن . وكذلك إن توفيق الحكيم لم يقل هذا الكلام وهو مؤمن . وذلك هو السبب فى بعض التناقض الذى كان يقع فيه وهو يقذف بخطاباته الكثيرة هذه على رأس (أندريه) صديقه الباريسى المسكين . ومن هذا التناقض أن يقرر أنه شيطان . ثم (يماحك !) فيقول إنه ملاك . ومنه أيضاً أن الإنسانية لم تخسر شيئاً إذا تمكن العلم الحديث من بتر الحب واستئصاله[2] . مع

(١) زهرة العمر ١٨٧

(١) زهرة العمر ص ٩٨ (٢) ص ٣٠

أنه يعود فيدعى أنه يحب الحب ، وأن للحب عنده مقاماً كبيراً في الحياة . في كل حياة[1] ؛ ومن تناقضه أيضاً وقوعه في هوى (إيما) لا لشيء إلا لأنها عرفت كيف تعذبه بالتيه والدل والبعد وكل ما في معجم الهجران من هوان . ثم دلاله هو على ساشا الجميلة الجذابة التي اعترف بأنها أجمل من إيما وأكثر جاذبية ، وذلك لأنها كانت مفتقرة إلى بره وإلى قليل من دريهماته ، ثم إلى مقاسمته سريره وكتبه ... ومن تناقضه أيضاً عداوته للمرأة (قبل المعاهدة التي أبرمناها معه بهذا الصدد) بسبب حبه لإيما . إيما الهيفاء التي كنت أحس لسع حبها ولفحه . بل اضطرامه يتأجج به فؤاده في ثنايا سطور (زهرة العمر) ، وهو لا يزال يتلظى بناره حتى هذه الساعة ... إيما — وكم في الدنيا من إيما التي تملك وحدها كما قلت له ذلك أمام قاضينا الزيات — أن ترده إلى الجنة التي طردته منها في ساعة من ساعات الجنون

آه يا ساشا المسكينة لو عرفت سر توفيق الحكيم ! إنه عند ما رآك أول مرة نسي إيما ونسي بيغاءها ونسي باريس كلها ، وطلب سكيناً لينتحر تحت قدميك الجميلتين الصغيرتين ، لكنك حينما جئت إليه وفي عينيك لمحة من أسى ، وبلة من بكاء . عند ذلك انخفضت قيمتك في عينيه ، وهبط ثمنك في سوق غرامه .

آه ياساشا المسكينة لو عرفت سر توفيق الحكيم ، وعرفت تناقضه في الحب ، وفي الفن ، وفي الله ، وفي الشيطان !

لقد عرفت إيما هذا السر فعبثت بصاحبك ، وصاحبها ، زمناً ليس بالطويل وليس بالقصير ، فلما عرف سرها طارت عنه وتركته يناصبها العداء ، ويناصب كل امرأة من أجلها العداء . ثم يحتج في تناقضه مع الدنيا نفسها ومع إخوانه البشر . بهذا المودرنزم ، وذلك حين يدعى ، برغم الحب الذي ينشب أظفاره في نياط قلبه ، أنه لا يريد أن يعصى الله من أجل التفاحة التي هي الحب ، والتي خيل إليه أنه لم يذق حلوها قط[2] ! فهل صدقت يا ساشا وهل صدقتم أيها المؤمنون أن توفيق الحكيم ، رجل يقع أحياناً في التناقض الشديد الذي يجعله مؤمناً مرة ، ويجعله كافراً مرات ، ثم يجعله مغرماً طوراً ، ويجعله رجلاً لم يقع في شراك الهوى قط ! اسمعي يا ساشا واسمعوا أيها المؤمنون هذا

(1) ص ٥٨ (2) ص ١٧٤

الرجل الولع بالمودرنزم يقول[1] : « إني لم أزل أحب إيما لأنها شيء بعيد ، غير موجود في كل وقت ... ترتفع إلى غناؤها من نافذتها كأنه شعاع يأتيني من بعيد . إنها أعطتني بعض أسرار نفسها وجسمها . ولكنها مع ذلك ليست في يدي ، شأنها شأن الطبيعة التي تعطينا وتستعصى علينا . إن الحب قصة لا يجب أن تنتهي . قصة إيما مستمرة لا تريد أن تنتهي ... لو أن إيما قبلت أن تترك حجرتها كما عرضت عليها وتأتي لتقطن معي في حجرتي لكان حظها عندي حظ ساشا . هنا الفرق بين الغرام والزوجية !

فتوفيق الحكيم لا يحب إلا المرأة التي تمزق قلبه بالهجر ، وتؤرق جفنه بالسهد ، وتذوى شبابه الفينان بحرق الغيرة ونيران الشك ... لماذا لا يتزوج توفيق الحكيم ؟ إليك جوابه بقلمه !

« ... إني أدرك لماذا يفتر الحب الملتهب بين الخليلين إذا تزوجا وقد يعود إلى سابق اشتعاله إذا عادا خليلين »[2] ... « أندريه ، أندريه ، أخشى أن يحطمني المجتمع ... يحطم الفنان فيّ ... ربما كان قد حطمني وكسرني ... ولكني أقاوم ... منذ أسابيع وأنا أتلقى من أهلي خطابات يغررونني فيها بالزواج ... ويذكرون لي أسماء لامعة في الثروة والجاه ... ويتهمونني بالحمق والغفلة والعته إذا خامرتني فكرة الرفض ... لقد قلت لهم « لا » بأعلى صوتي ، وهم مشدوهون لا يعرفون السبب »[3] .

إنه يقول إنه لن يتزوج لأنه فنان . فهل جميع الفنانين غير متزوجين ؟! كلا ... ولكنه التناقض . التناقض والمودرنزم ! هنا عيب توفيق الحكيم يا ساشا ! عيبه الذي هيأ له أنه من صنع الشيطان لا من صنع الله ، وعيبه الذي يجعله يجفل من فكرة معصية الله من أجل التفاحة ، ومن أجل هذه التفاحة نفسها يعصى الله

أيها المؤمنون لا تغضبوا ! وفيم الغضب وهذه طبيعة الفنان ؟ وفيم الغضب ونحن لا نؤمن بما كان يؤمن به اليونانيون القدماء . نحن لا نؤمن بربات الانتقام ، أو ال Furies ... ولذلك فلن يخشى توفيق الحكيم كيدهن ، وحتى لو أنهن لاحقنه لأنقذه

(1) ١٠٠ ، ١٠١ (2) ص ١٥٢
(3) ص ٣٠٢ ، ٣٠٣

أبوللو منهن كما أنقذ (أورست)[١] منذ ثلاثة آلاف سنة ! !
أليس أبوللو هو إله الفنون الذى يزعم توفيق الحكيم أنه يؤمن به ، وطالما عفر جبينه بتراب هيكله ؟

لا تصدقوا أن هـذه هى عقيدة توفيق الحكيم ، فهو رجل متناقض ، لأنه رجل مؤمن . ألم يؤلف (أهل الكهف) وقد أخذ موضوعها من القرآن ؟ ألم يكتب كتاباً طويلاً عن محمد ؟ ألم يكتب قصة عجيبة عن سليمان أخذها من الكتب المقدسة ! إن كنتم فى ريب من هـذا ، فذا كم كتابه « زهرة العمر » الذى يفيض بالدفاع عن الأدب العربى ، وعن ألف ليلة وكليلة ودمنة والجاحظ والإسلام ... لا تراعوا إذا وجدتموه ينتقل فجأة من الكلام عن إعجابه بقصص القرآن إلى الكلام عن بنات الهوى فى باريس ، فكتبنا العربية قد سبقت إلى هذا الشىء من عدم مراعاة النظير ، فى العقد الفريد يأتى فصل عن المجون المكشوف وأخبار القيان بعد الفصل الذى فيه خطبة الرسول فى حجة الوداع ... وأمثال ذلك كثيرة فلا ضير على توفيق الحكيم أن يقع فيه مرة فى حياته ...

أيتها العزيزة ساشا :
لقد ابتدع توفيق الحكيم لوناً جديداً فى الأدب المصرى هو من فنه الخالص ... هو من عصارة قلبه النابض ، هو مزيج من الموسيقا والألوان وعبير الحدائق ، وفى هذا المزيج كثير من دموعك ، بل من دمك ، ولكن فيه أيضاً الكثير من دموعه هو أيضاً ومن دمه

إن توفيق الحكيم هو أحد أولئك الذين يخلقون لنا مصر الحديثة ... أدب مصر الحديثة ، وذوق مصر الحديثة ، وروح مصر الحديثة ، وفن مصر الحديثة ، وكل ما تفتقر إليه مصر الحديثة من لغة وفلسفة وشعر وسمعة !

إنه تلك الابتسامة الحلوة التى رفت فجأة على شفاهنا حينما كنا نفتقد المجددين ذوى المواهب فلا نجد منهم ثلاثة أو أربعة !

إن روح توفيق الحكيم تتلألأ فى كل سطر من سطور (زهرة العمر) فى خطوط الفنان القوية أحياناً وفى مسوح الراهب المتأمل أحياناً أخرى ... وقد تظهر فى ألف صورة من صور الأحياء المتارين خصوصاً فى صورة (البلياتشو !)

من غير حاجة إلى الدقيق على الوجه أو الطرطور على الرأس ... لأن توفيق الحكيم يستطيع أن يضحك إلى حد الإغراب بدون هذه الوسائل الشكلية ... إنه مضحك موضوعى ممتاز ... ولو أنه عنى بالتأليف للمسرح على النحو الذى يعرفه المسرحيون لأشرنا عليه أن ينقطع للملهاة . . . إنه إذا فعل يتيح للمسرح المصرى فرصة مواتية ومركزاً عالياً ومكانة عالية لا تمد لها مكانة ... على أنه مع ذاك أقدر من يستطيع أن يؤلف المأساة فى مصر ... لأن الضحك الذى يصنعه توفيق الحكيم مصدره البكاء ...

وبعد ، فقد ذكرت أننى كنت أصوره فى نفسى على صورة العارف بالله السيد احمد البدوى ، أفتدرى يا سيدى القارئ أن سيدى المرسى أبا العباس قد صدّر توفيق الحكيم إلى طنطا . إلى البدوى العظيم ... وأن البدوى العظيم قد صدره بدوره إلى سيدى ابراهيم الدسوقى ! ! فما معنى هذا فى تاريخ حياة أديبنا الألمعى ! وما الصلة الروحية بينه وبين أقطاب الأولياء فى مصر ؟ وما الصلة بين هذا كله وبين إهدائه عصفور من الشرق إلى (الست الطاهرة ... السيدة زينب ؟ !)

كل من رأى توفيق الحكيم ولو مرة واحدة ... يفهم سر ذلك !

دريني خشبة

(١) درامة تبرئة أورست لاسخيلوس لخصناها فى الرسالة منذ ثمانى سنوات .

٤ ـ جامع احمد ابن طولون

للأستاذ أحمد رمزي بك

قنصل مصر في سوريا ولبنان

ولا أجد حرجاً من إيراد نص اللوحة التذكارية التي كتبت بالخط الكوفي المزهر لذلك العهد وفيها :

ـ « نصر من الله وفتح قريب ، لعبد الله ووليه معد أبي تميم الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وعلى آبائه الطاهرين ، وأبنائه الأكرمين ، أمر بتجديد هذا الباب ، وما يليه عند عدوان النار على أيدي المارقين ، السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ، ناصر الأنام أبو النجم بدر المستنصري ، أدام الله قدرته ، وأعلى كلمته ، ابتغاء ثواب الله ، وطلب مرضاته وذلك في صفر سنة سبعين وأربعمائة »

وتدل تلك الكتابة على حوادث الثورة ، التي جرت في عهد المستنصر حينما اعتصم بعض الثوار بالجامع وتحصنوا فيه ، فحوصروا وأحرق بسبب ذلك جزء منه جدده الأمير بدر الجمالي وزير الدولة الفاطمية

***

في تاريخ مصر العربية ، وقفات حزن وأسى ولوعة ، اضطرب فيها قلب مصر كما قال أحد كتابنا في دفن الزعيم مصطفى كامل ، ولقد قال شوقي يومئذ :

شقت لمنظرك الجيوب عقائل وبكتك بالدمع المتون غواني

ولقد وقفت القاهرة صفاً صفاً ، تودع الزعيم الشاب إلى مرقده الأخير ، وأثر في هذا المنظر ، أنا القاهري الناشيء ، فصرت وطنياً وأنا في السابعة إلى نهاية ما يكون الوطني عليه في الحماس

وأثر في كرجل يميل إلى التاريخ والأدب ، فصرت أتتبع أيام مصر التي اضطرب فيها قلبها ، اضطراب يوم مصطفى كامل وإني لأذكر بعد البحث ، أن صفحات تاريخنا مملوءة ، بمثل هذا اليوم ، ولكني لا أجد حزناً ولوعة بنسبة حزن مصر وأهلها على زوال ملك الفاطميين

إن ما وصل إلينا من ذلك قليل من كثير ، ولكنه يفيض حناناً . والحقيقة أن العصر الفاطمي قد ترك فينا معاشر المصريين أكبر الأثر ، وصبغ حياتنا صبغة خاصة ، فإذا أردت أن تدرس مصر العربية ، لا تنسى أن تدرس الدولة الفاطمية بالتفصيل ، فنحن لا نزال نسير على سننهم ومراسمهم ؛ فزيارة آل البيت فرض على كل من يؤم القاهرة من أهل الريف ، والاحتفال بصلاة الجمعة اليتيمة والعيدين ، والاهتمام بالقراء والتلاوة والتلقين كلها من آثار ذلك العهد

ومنذ أيام كنت أقلب كتاب الروضتين فجاء ذكر الشاعر عمارة اليمني بأنه من أتباع الدولة المصرية وأورد له شعراً رقيقاً يفيض حنواً على الإمام العاضد آخر خلفائهم إذ يقول :

أسفي على زمن الامام العاضد أسف العقيم على فراق الواحد

لهفي على حجرات قصرك إذ خلت يابن النبي من ازدحام الوافد

ولقد دفع عمارة الشاعر الثمن بحياته جزاء إخلاصه ، وبشعره تطوى صفحة من تاريخ مصر ، تصحبها نغمة من نغمات الحزن العميق والتقدير ، لندخل طوراً من أطوار المجد والبطولة تغمره الحوادث والمعارك والنصر والغلبة

أنتقل إلى القسم الأخير من هذه الكلمة ، فأعرض لوصف المسجد وصفاً مختصراً :

الجامع الطولوني هو الثالث في ترتيب المساجد الجامعة التي أقيمت فيها صلاة الجمعة في مصر ، بعد الفتح التحريري العربي ، بناه الأمير أحمد بن طولون على جبل يشكر في الجهة الجنوبية من القاهرة ، بينها وبين الفسطاط ، في حي السيدة زينب الآن ، وهو أقدم مساجد مصر بلا نزاع ، بل أقدم آثارها العربية ، بعد مقياس النيل بجزيرة الروضة ، وأول جوامع مصر هو الذي بناه عمرو بن العاص ، ثم جامع العسكر . فلما قدم ابن طولون صار يصلي فيه الجمعة بجنده وسودانه ، فشكا أهل مصر إليه ، فعزم على بناء جامع ، فأشار عليه جماعة من الصالحين أن يبنيه على جبل يشكر ، وذكروا له فضائله فأخذ برأيهم .

ذكر ابن دقماق والمقريزى عن هذا المسجد من أن بناءه أقيم على مثال جامع سامرا أو سر من رأى

ولقد ذكر الأستاذ كريزول ما يأتى :

إنه على عهد بنى أمية كانت الدولة عربية خالصة ، وكان يغلب على العمارة التأثير السورى واستعمال الفسيفساء

ثم انتقلت عاصمة الخلافة إلى بغـداد فى عهد بنى العباس ، وصارت مركز التطور الدولى ، فغلبت على العمارة المؤثرات الفارسية وأساليب العمارة الساسانية والعراقية

وابن طولون من مواليد سامرا وقد جاء إلى مصر يحمل معه كل تقاليد البلاط ، وما من شك فى أنه يميل إلى تقاليد مولاه

كتب الـكثيرون فى وصف المسجد ، ولقد أخذنا ما تقدم نقلاً عن الأستاذ محمود عكوش فى كتابه المطبوع ١٩٢٧ ، ولـكن ظهر بين يدينا اليوم كتاب الأستاذ كريزول العظيم ؛ ويتضح من أبحاثه التى قام بهـا فى العراق والصور التى أخذها لجامع سامرا من الجو ، أن التماثل بين المسجدين عظيم ، وأن مسجد ابن طولون ما هو إلا صورة مصغرة للمسجد الذى بناه المتوكل فى عاصمة ملـكه سامرا بالعراق

فإذا كانت البوائك على صفين من الجانبين فى مسجد مصر ، فهى أربعة فى مسجد المتوكل ، وقس على ذلك السـعة والأروقة والارتفاع والضخامة ، ولقد كشفت صور الجو أن تحت الثرى مدينة بأكملها قد غطتها الفيضانات العالية ، بدجلة تنتظر الـكشف لتخرج مدينة سامرا القديمة بشوارعها ومبانيها كما كانت فى أيام العباسيين

ولا شك فى أن مسجد ابن طولون سيكون انموذجاً ، قد حفظته مصر للعراق ، إذا فـكرت الحـكومة العراقية فى إعادة بناء مسجد المتوكل ، إنه سيكون تحفة من تحف الدنيا ، ومظهراً من أضخم مظاهر مدنية العرب ، وجبروتهم فى العمارة والإنشاء

ونعرض هنا إلى موضوع المنارة ، فهى من أغرب ما يستوقف الأبصار ، وتعد من الألغاز لأنها مبنية على شكل لا نظير له فى المنائر بجميع الأقطار العربية والاسلامية . ولقد انقسم العلماء واختلفوا كعادتهم هل هى لاحقة لبناء المسجد ، أم بنيت معه وهل هى صورة من منارة سامرا الحلزونية ؟ والعلماء وهم كعادتهم قد جزموا بأن الأثر البيزنطى ظاهر واضح فى كل شىء ، وأن العرب لم يأتوا بجديد ، فـكبر على نفوسهم أن تأتى الحفائر والاكتشافات فتظهر أن المسجد صورة من مسجد عربى ، أكبر من هذا هو جامع سامرا ، وأن الأسطورة البيزنطية لا شأن لها اليوم وقد وضعت العناية الحق على لسان الأستاذ كريسول فدعمه بعلم وتمحيص دقيق يعجز عنه المتصدرون لاستعمال العلم لغايات فى أنفسهم هى الإقلال من شأن العرب والعروبة

وللمنارة حديث طويل ، وفى أواخر القرن السابع الهجرى لجأ إليها الأمير حسام الدين لاجين المنصورى ، وكان المسجد مهجوراً ، ويوقد به سراج واحد ، ويدخله خادم ، وقد تعطلت الشعائر الدينية فيه

(البقية فى العدد القادم) أحمد رمزى



— الراجل ده يا يكون انفتح له كنز يا يكون كسب الدربى

— لا كده ولا كده ... ده اشترى حته من اراضى الأوقاف

من أدب التاريخ

شاعر ومنجم ...

للأستاذ محمود عزت عرفة

العهد عهد الخليفة المستعين أبي العباس أحمد بن محمد بن المعتصم ، ذلك المتولى فى الخامس من ربيع الآخر عام ٢٤٨ هـ ، إثر وفاة الخليفة المنتصر ولى عهد أبيه المتوكل وقاتله . والشاعر هو الوليد بن عبيد الله البحترى المكنى أبا عبادة ؛ أما المنجم فهو جعفر بن محمد البلخى ، المكنى أبا معشر

ولم يكن أبعد من هذين الرجلين على عهدهما صيتاً ، ولا أثبت منهما فى فنيهما مقاما ؛ ومع ذلك فقد لقيا أيام المستعين من الجافاة والإعراض وقلة المبالاة ما ضاق معه عيشهما ، وانسدت به مسالك الحياة الهنيئة دونهما

فقد كان الأول شاعر المتوكل الأثير ... شهد بعينيه مصرعه الرهيب على يد ابنه وولى عهده ، وسمع بأذنيه - بعد حين - قصة نقض البيعة الموثقة التى عقدها المتوكل لولده المعتز من بعد أخيه ؛ فكان حزن الشاعر على الخليفة المصروع لا يوازيه إلا عطفه على الأمير المخلوع

ولما عجلت بالمنتصر ميتته المريبة فلقي بها أول ما يلقاه كل عاق ناكث للعهود ، بادر نصراؤه من قواد الأتراك إلى تنصيب المستعين بالله على عرش الخلافة ؛ إمعاناً منهم فى إقصاء المعتز الذى طال بتدبيرهم حرمانه ، وتنزت بسبب ذلك فى صدره السخائم والأحقاد عليهم

وزادوا على هذا أن ألقوا بالمعتز فى غيابة السجن ، مع أخيه المؤيد ثالث أولاد المتوكل وأولياء عهوده ؛ فلم يكن لشاعر كالبحترى أن يظهر فى مثل هذه الفترة ، أو أن يؤمل عند المستعين وشيعته جاهاً ...

ذلك موجز حديث أبى عبادة ؛ أما صديقه أبو معشر فأيسر ما نقول فيه أن المستعين كان يعتدّ له من الإحسان ذنباً ، ويتجنى عليه ببالغ العقوبة أشد ما يكون ترقباً منه للاحسان والمثوبة ؛ حتى لقالوا إنه ضربه مرة أسواطاً على ما صح من حدسه فى أمر أخبر بوقوعه قبل حينه ، فكان أبو معشر يعجّب الناس من ذلك ويقول : أصبت فعوقبت !

أمضى الصديقان عاماً من خلافة المستعين وهما أبأس مايكون حالاً ، وقد انعقد واهي أملهما على سجين قصر الجوسق بسامراء ، أبي عبد الله المعتز ، وكان معتقلاً هنالك مع أخيه ابراهيم المؤيد . ولقد كان من حقهما أن يستمسكا بهذه الآمال التى عقداها على الأمير المسجون لما كان يشهدانه من اضطراب حبل السياسة فى يد المستعين ؛ إذ راح الأتراك يقتتلون بدافع أطماعهم حول دعائم العرش التى أقاموها بأذرعهم ، وبلغ من ضعف نفوذ الخليفة يومئذ أن امتدت أيديهم إلى وزيره (أناش) وهو قائم بين يديه فى قصره ، فسلبوه الحياة مع كاتبه (شجاع) ، وقد حدث ذلك يوم السبت رابع عشر ربيع الآخر عام ٢٤٩ هـ

ومن الطريف أن نرى البحترى - وقد قرت عينه بهذا الحادث دون شك - يبعث إلى المستعين بهذه الأبيات مادحاً ومهنئاً فى موضع كانت السخرية فيه أقرب إلى لسانه ، والتشفى أعلق بفؤاده :

لقد نصر الإمام على الأعادى ... وأضحى الملك موطودَ العماد
وعرفَّت الليالى فى (شجاع) ... و (ناش) كيف عاقبة الفساد
تمادى منهما غيٌّ فلجَّا ... وقد تُردي اللجاجة والتمادى
وضلا فى معاندة (الموالى) ... فما اغتبطا هنالك بالعناد !

وما نشك فى أن البحترى كان أصدق فى شعوره ، وأبلغ فى الإبانة عن وليجة نفسه ، حين انكفأ غبَّ ذلك إلى بيته يناجى خادمه « نائلا » بخفى أمانيه فيقول :

ألا هل يحسن العيش ... لنا مثل الذى كانا ؟
وهل ترجع يا نا ... لُ بالمعتز دنيانا ؟
عدمت الجسدَ المُلقَى ... على كرسى سليمانا ...
فقد أصبح للنعـ ... ـمة قلاه وبقلانا !

***

إزداد نفوذ المستعين بين رعاياه تقلصاً ، حتى لأصبح « الجسد الملقى » حقيقة كما وصفه البحترى . وانتهى الأمر بأن انحازت إليه شعبة من الأتراك على رأسها وصيفٌ وبغا ؛

وراحت شعبة أخرى يقودها باغر تدبر له الكيد وتمشى حوله الضراء من كل سبيل . ثم قتل باغر بتدبير من حزب الخليفة ، فثارت ثائرة أنصاره حتى لم يجد المستعين بدًّا من الانحياز إلى بغداد (فى المحرم عام ٢٥١هـ)

وتناهت هذه الأخبار إلى البحترى وأبى معشر وهما فى معتكفهما ، فأقبلا يتداولان فى الأمر ملياً ، ويجددان من قديم أمنيتهما ، وقد أمّلا أن تطّرد الحوادث فى طريقها حتى تفضى بهما إلى كل ما يسر ويرضي ... ثم انبعثا يقولان : وماذا علينا والحال كما نرى ، أن نمضى إلى المعتز بالله فى محبسه فنتودد إليه ونؤصل عنده أصلاً ؟

وطابت لديهما الفكرة فجدًّا فى إنفاذها ، واحتالا حتى توصلا إلى لقيا الأمير فى معتقله . ولم يكن البحترى قد أعد لهذا اللقاء شعراً ، وأى شعر يقال لسجين يترقب الموت فى كل لحظة !

على أنه فكر هنيهة حتى استرجع فى ذهنه أبياتاً له قديمة كان قد واسى بها أبا سعيد الثغرى وهو فى معتقله أيام المتوكل ، فأعاد تحريرها فى رقعة لطيفة ، وكان أبو معشر قد هيأ صحيفة فى أحكام النجوم سهر على ضبطها وتصحيحها الليالى الطوال

وفى إحدى غرف الجوسق مثل الرجلان أمام المعتز فواسياه بما تهيأ لهما من كلام . ثم استأذن البحترى فى الإنشاد ، وتلا أبياته من رقعتها ... كأنه نظمها من يومه :

جُعلنا فداك ، الدهر ليس بمنفك
من الحادث المشكوّ والنازل المشكى

وما هـذه الأيام إلا منازل فمن منزل رحب ومن منزل ضنك
وقد هذبتك الحادثات ، وإنما صفا الذهب الإبريز قبلك بالسبك
أما فى نبى الله يوسف أسوة لمثلك محبوساً على الجور والإفك؟
أقام جميل الصبر فى السجن برهة فآل به الصبر الجميل إلى الملك
على أنه قد ضيم فى حبسك الهدى وأصبح عز الدين فى قبضة الشرك

وأصغى المعتز إلى الشعر فى تأثر ، ثم تناول الرقعة ودفعها إلى خادمه وقال : احفظ هذه وغيبها ، فإن أفرج الله عز وجل عنى فذكرنى بها لأقضى حق هذا الرجل الحر

وتقدم أبو معشر فقال : إنى جئتك والله أيها الأمير بأعظم البشرى وأصدقها . كنت قد أخذت مولدك يوم عقد لك العقد ، ويوم عقدت البيعة للمستعين ، فنظرت فى ذلك ، وصححت الحكم لك بالخلافة بعد فتن وحروب تجرى . وصح عندى الحكم على المستعين بالقتل ، وهاك صورة مما عملت

فتناول المعتز الصحيفة مستبشراً ، وشكر للرجلين نبلهما ووفاءهما ، ثم وعدهما ومناهما . فخرجا وهما أكثر الناس رضاء وأرحبهم أملاً ...

* * *

وانقضى شهر على حادث المستعين إلى بغداد جرت أثناءه مداولات غير مثمرة ، ثم آب الثائرون إلى سر من رأى فأخرجوا المعتز من الجوسق وبايعوه بالخلافة . واضطرمت نار الفتن والحروب عاماً كاملاً خلع فى نهايته المستعين ، ثم نقل مخفوراً إلى « واسط » حيث قتل بعد أشهر . واستقر أمر الخلافة للمعتز ... وهكذا صدق فأل البحترى وصحت نبوءة أبى معشر

ومثل الصديقان بعد حين أمام المعتز فهش لهما وبش ، ورفع من مجلسهما حتى رمقتهما العيون بالغبطة ، ثم قال لأبى معشر : لم أنسك منذ لقيتنى ، ولقد صح حكمك ، وأنا مُجرٍ لك فى كل شهر مائة دينار رزقاً وثلاثين نُزُلاً ، وجاعلك رئيس منجمى دار الخلافة . ثم قد أمرت لك عاجلاً بإطلاق ألف دينار صلة ... فقبض أبو معشر ذلك كله من يومه

أما البحترى فقد أنشد فى ذلك اللقاء بائيته المشهورة :

يجانبنا فى الحب من لا نجانبه ويبعد عنا بالهوى من نقاربه

وفى القصيدة مدح للمعتز وهجاء للمستعين ؛ ونحن ندع للقارئ أن يراجعها بتمامها فى ديوان البحترى ، ولكنا نختص مع ذلك بالتسجيل هنا قوله :

بكى المنبر الشرقى إذ خار فوقه على الناس ثور قد تدلت غباغبه
ثقيل على جنب الثريد مراقب لشخص الخوان يبتدى فيواثبه
تخطى إلى الأمر الذى ليس أهله فطوراً ينازيه وطوراً يشاغبه
ولم يكن المعتز بالله إذ سرى ليعجز (المعتز بالله) طالبه
رمى بالقضيب عنوة وهو صاغر وعُرّى من بُرد النبى مناكبه
وقد سرنى أن قيل وُجّه عارياً من الشرق تُحدى سفنه وركائبه

إلى (واسط) حيث الدجاج ولم يكن
لتنشب إلا في الدجاج مخالبه !

وكان رضى الخليفة بالغاً غايته عن شاعره الأول وشاعر أبيه من قبله ، فاستحضر الرقعة القديمة بعينها وفيها أبياته الستة ؛ ووهبه على كل منها ألف دينار ، فأُعطى البحترى ستة آلاف دينار كلا

ثم نصح إليه المعتز ألا يبادر بإنفاقها فى شراء ما قد يروقه من غلام أو جارية أو فرس ... وقال له : « إن لك فيما تستأنف معنا فى أيامنا ، ومع وزرائنا وأسبابنا إذا عرفوا موضعك عندنا ، غناء عن ذلك ... »

ثم حسن له شراء ضيعة ينتفع بغلتها ، ويبقى عليه وعلى ولده أصلها . وكذلك صنع البحترى ... فعاش إلى انتهاء خلافة المعتز فى رفاهة من الحال ورغد من العيش .

(جرجا) **محمود عزت عرفة**

[منازع المقال :
١ — إخبار العلماء بأخبار الحكماء للوزير القفطى
٢ — الفرج بعد الشدة للقاضى التنوخى
٣ — ديوان أبى عبادة البحترى
٤ — بعض مصادر التاريخ العام « العصر العباسى »]

من حضارة الإسلام

دور التحف العربية

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

المتاحف أمكنة لحفظ التحف والألطاف والآثار . وهى الآن سبيل من سبل المعرفة . وقل أن تجد عاصمة غربية من غير دار للتحف تضم أشتاتاً من الآثار . فالمتحف البريطانى بلندن معروف مشهور . وهو مؤسسة قومية تضم كثيراً من الكتب والمخطوطات والمطبوعات والرسوم والآثار القديمة وقطع النقود . وقد أسس سنة ١٧٠٠ ، ولم تفتح أبوابه للزائرين إلا سنة ١٧٥٩

وفى باريس مجموعة من المتاحف أشهرها متحف اللوفر الذى يضم مجموعة ثمينة من الآثار المصرية القديمة والأشورية واليونانية والرومانية ، وطائفة كبيرة من آثار العصور الوسطى والعصر الحديث .

وفكرة إنشاء المتاحف وفتح أبوابها لإفادة الجمهور فكرة أوجدتها النهضة الأوربية الحديثة المعروفة بالرينسنس . وكانت إيطاليا أسبق الأمم إلى العمل بها . ومنها تسربت إلى بقية الدول . وقد بدأ الإيطاليون بها فى القرن الخامس عشر ، وهو ذلك القرن الذى شهد مصرع الإسلام فى الأندلس وسقوط دولة بنى الأحمر

ويظهر أن الإيطاليين أخذوا فكرة المتاحف عن العرب الذين نقلت معارفهم وعلومهم وألوان ثقافتهم إلى أوربا عن طريق الإيطاليين . ولقد مهد لذلك وجود طائفة كبيرة من الآثار والتحف والألطاف التى أخذها الإسبانيون من خزائن ملوك غرناطة المسلمين . فكانت تلك الأسلاب والنهائب النواة لإنشاء المتاحف العامة التى تزدحم الآن بكثير من الآثار العربية وغير العربية .

ولم يكن عند العرب نظام المتاحف العامة حتى يقال إن الغربيين أخذوه عنهم . ولكن الحق أن العرب كان عندهم نظام المتاحف الخاصة والخزانات العامرة فى قصور الخلفاء والأمراء والوزراء التى تحوى كل نفيس ، وتضم كل ثمين . فرأى الغربيون أن يجعلوا ميدان الانتفاع بهذه الفكرة أوسع ، ومجال الاستفادة منها أعظم ؛ فنقلوها إلى بلادهم ، وأخرجوها من ملكية الأفراد إلى ملك الأمة وتراث الوطن حتى يضمن لها البقاء ، وتسلم من الضياع والتعرض للنهب والحزبق وغيرها .

وكان الخاصة يجمعون التحف على سبيل المباهاة والافتخار ، لأنهم أقدر الناس على جمعها . فقد حكوا أن أحشويرش الأشورى كان عنده خزانة خاصة افتنّ فى جمع آثارها ، كما افتن البطالسة فى مصر فى جمع التحف وأقاموا لها المتاحف فى مدينة الإسكندرية التى كانت زاهرة فى عهدهم .

ولم يُعن النبى عليه السلام وخلفاؤه الراشدون بجمع التحف لأنهم لم يكونوا أهل مادة ودنيا ، ولكن أهل تقية وعفاف وتحرج . وقد كان عمر بن الخطاب يتحرج من مزاولة التجارة .

ولم يهتم خلفاء بنى أمية بجمع التحف حتى على تشبههم بالأعاجم فى اتخاذ التيجان على رءوسهم . وهذا عمر بن عبد العزيز كان قبل الخلافة مفرطاً فى التنعم ، حتى لم يجد فيه حساده عيباً إلا هذا . فلما ولى الخلافة تزهد .

فلما جاء العباسيون مالوا إلى الاهتمام بجمع التحف والآثار ، وكان لكل خليفة من حامي آثارهم هوى خاص . فهذا الخليفة الراضي ابن أخي الخليفة القاهر اتخذ في داره خزانة خاصة لجمع البللور حتى قال فيه الصولى : « ما رأيت البللور عند ملك أكثر منه عند الراضي ، ولا عمل ملك منه مثل ما عمل ، ولا بذل في أثمانه ما بذل حتى اجتمع له من آلته ما لم يجتمع لملك قط »

وكان في ملوك بني بويه شغف بجمع التحف ، وخاصة عضد الدولة بن بويه ؛ فقد ذكر ابن الصابي ونقل عنه المستشرق السويسري آدم متز أنه خلف من الجواهر واليواقيت واللؤلؤ والماس والبللور والسلاح وضروب المتاع شيئاً كثيراً . ويقول ابن الجوزي في كتابه المنتظم أن بهاء الدولة بن بويه جمع من المال والتحف والألطاف ما لم يجمعه أحد من بني بويه .

على أن بعض خلفاء العباسيين قد غالوا في الجمع إلى حد الترف والبذخ مما يصح أن يكون موضع مؤاخذة لهم . فقد روى الثعالبي صاحب لطائف المعارف أن المكتفي — وهو قريب من عصر المأمون — ترك من الكراع والسلاح والأثاث والجوهر وعمائم مرو والحلل الموشاة اليمانية المنسوجة بالذهب وبطائن كرمان في أنابيب القصب والأبسطة الأرمنية — ترك من ذلك كله ما يعد بالآلاف .

وقد حاكى كثير من الأمراء الخلفاء في جمع التحف ، فهؤلاء البرامكة روى عنهم سهل بن هارون ، وكان خازن دار الحكمة في عصر المأمون ، كثيراً من مغالاتهم في الجمع قائلا : « فإنه لا يصف أقله ، ولا يعرف أيسره إلا من أحصى الأعمال ، وعرف منتهى الآجال »

ولا شك أن كثيراً من تحف العباسيين قد ضاعت فيما ضاع بسبب غارة التتار عليهم . فقد حدث ابن الفوطي البغدادي — وكان معاصراً لسقوط بغداد سنة ٦٥٦ — : « أن السلطان هولاكو وصل بغداد في جيش لا يحصى عدده ولا ينفد مدده . فخرج الخليفة المستعصم ووزيره مؤيد الدين العلقمي ومعه جمع كثير إلى السلطان . ثم دخل الخليفة بغداد ومعه جماعة من أمراء المغول ، وخوجة نصير الدين الطوسي . وأخرج إلى التتار من الأموال والجواهر والحلي والزركش والثياب وأواني الذهب والفضة والأعلاق النفيسة جملة عظيمة » .

أما بلاد الأندلس فقد جمع كثير من ملوكها وأمرائها الأعلاق والنفائس في دورهم الخاصة . ولا شك أن الزهراء وهي المدينة التي بناها أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر غربي قرطبة كانت تزخر بدور التحف الخاصة . فقد نقل صاحب نفح الطيب عن ابن الرقيق : أن الناس لما اقتحموا الزهراء أسقطوا هشاماً وأزالوا دولة بني عامر ، ونهبوا قصور الخلافة فيها ، حتى أن بعض ما نهب في هذه الثورة وصل إلى بغداد وسائر بلاد الشرق وبيع في أسواقها .

وكان لهذه التحف والألطاف — كما هو الشأن اليوم — أسواق تباع فيها وسماسرة يتجرون بها . وقد روى ابن الفقيه أن تجاراً من اليهود كانوا يأتون من مقاطعة بروفنس بفرنسا ، ويحملون معهم الديباج والخز الفائق والفراء الثمينة ، كما ذكر ابن خرداذبة أن تجار الروس كانوا يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف . كما كانت تحف الصين وألطافها تأتي مع التجار الذين ذرعوا البحار في تلك الأزمان .

ولقد أسرف خلفاء الفاطميين في ذلك الباب إسرافا عظيما ، ولم يكتفوا بوضع هذه الألطاف في قصورهم ، بل أقاموا لها قصوراً خاصة ، وكانوا يسمونها الخزائن جمع خزانة ، ولم تكن تلك الخزائن — كما يفهم من اسمها — أمكنة للخزن ، وإنما كانت معارض خاصة توضع فيها التحف على نظام خاص ونسق معين ، فهي بعينها دور التحف التي نراها اليوم ، وفرق ما بين الاثنين أن الأولى كان يملكها ملك أو أمير ، والثانية ملك عام للأمة ، فهي من منافعها العامة التي تتولى الإشراف عليها وتقوم على توسيعها وتزويدها لتكون ميراثا وطنياً خالصاً لا يختص به حاكم ولا سلطان .

كان عند الفاطميين خزانة للأسلحة تعادل الآن المتاحف الحربية العامة التي عنيت الأمم حديثاً بإنشائها . ونستطيع أن نقول إن فكرة التخصيص في المتاحف كانت عند الفاطميين . ولعلهم أول من استعملها فيما نعرف من التاريخ . فكان عندهم للجواهر دار ، وللأسلحة دار ، وللفرش دار ، وللطرائف دار ، وللسروج دار ، وللخيم دار ، وللشراب دار . وكان بعض هذه الخزائن أشبه بمصانع لإنتاج ما يحتاج إليه الأمراء والجند والحاشية ، كما يفعل « سلاح الصيانة » الآن في الجيوش الحديثة ،

ويدل على ذلك ما رواه المقريزي في الجزء الثاني من خططه . فقد ذكر أن خزائن السلاح كان من محتوياتها ذو الفقار سيف علي وصمصامة عمرو بن معد يكرب ، وسيف كافور الأخشيد ، وسيف المعز ودرعه ، وسيف الحسين بن علي عليه السلام ، ودرقة حمزة ، وسيف جعفر الصادق .

أما دار الطرائف فقد جمعت النفيس الرائع في العصر الفاطمي من البسط والستور والتعاليق وآنية البلور . التي كانت تصنع باسم الخلفاء ورسمهم . فقد روى المقريزي عمن يثق بقوله أنه رأى بطرابلس قطعتين من البلور الساذج الغاية في النقاء وحسن الصنعة إحداهما خردادي ، والأخرى باطية مكتوب على جانب كل واحدة منها اسم العزيز بالله (تسع الباطية سبعة أرطال مصرية ويسع الخردادي تسعة) ، وأنه عرضهما على جلالة الملك ابن عمار فدفع فيهما ٨٠٠ دينار . فامتنع من بيعهما ، وكان اشتراهما من مصر من جملة ما أخرج من الخزائن . ووجد أكثر من مائة كأس بادزهر ونصب وأشباهها على أكثرها اسم هرون الرشيد وغيره ، كما وجد للسيدة رشيدة ابنة المعز لدين الله حين ماتت ما قيمته آلاف الآلاف من الدنانير . ومن جملة ذلك بيت هارون الرشيد الخزّ الأسود الذي مات فيه بطوس ، كما وجد للسيدة عبدة بنت المعز الأخرى ما لا يحصى من النفائس ، ومن ذلك حصير من الذهب وزنها ١٨ رطلاً ذكر أنها الحصير التي جليت عليها بوران بنت الحسن بن سهل على المأمون — إلى غير ذلك مما أفاض المقريزي في وصفه وسرده .

وقد يكون في ذلك كثير من المبالغة ، إلا أنها على كل حال لا تعدم من الحق سبيلاً .

وكان المماليك يهتمون بجمع التحف والألطاف وتزيين قصورهم بهـا . وقد روى المقريزي في الجزء الثالث أن الأمير تنكز الأشرفي عين من قبل قلاوون أميراً على الشام ، وظل كذلك إلى أن تنكر له السلطان وجهز له من قبض عليه ، وصادر أمواله وكان من جلتها الجوهر واللؤلؤ والزركش والنفائس . فإذا كانت هـذه حال أمير من أمرائهم ؛ فما بالك بالسلاطين أنفسهم ، وقد كان المال في أيديهم كثيراً ؟

ومن سوء الحظ أن كثيراً من هذه التحف قد ضاع ، ولا يبلغ ما جمع منها في متاحف العالم إلا قدراً ضئيلاً . وقد تكون أيدي الجهال عبثت بها فأحالتها إلى غير حالها ، فأسالت ذهبها وفضتها وهشمت زجاجها وبلورها .

ومن عجائب الأقدار أن مصائر ما بقي من التحف أوسلم منها كمصائر بني البشر أنفسهم . قد فرقتها الأقدار وبعدتها الأدهار وأنزلتها في غير أوطانها ، وأحلتها في غير بلدانها . ففي لندن منها قطع ، وفي باريس أشتات . وفي مدريد وروما وبرلين والقسطنطينية وغيرها .

ولقـد نشطت الأمم العربية وانتبهت إلى الاحتفاظ بآثارها وجمعها في دور عامة . فأنشأت دار الآثار العربية في مصر سنة ١٨٨١ ، وإن كان أمر إنشائها صدر في عهد اسماعيل سنة ١٨٦٩ ، وأنشىء المتحف الأهلي في الجزائر سنة ١٨٩٧ ، وأنشىء المتحف العلوي في تونس ، ودار الآثار العربية في العراق في تاريخين غير متحققين عندي .

ولعل البلاد العربية جميعاً تضاعف الهمة حتى تحتفظ بالكثير من تراثها المفقود .

محمد عبد الغني حسن

من الشعر الحر (*)

الحديقة الميتة والقصر البالى

للأستاذ خليل شيبوب

أمر عليها كل يوم فأبصر
أشجارها مشومة الأغصان
ويأخذنى حزن عليها فأشعر
باليأس يعقل خاطرى ولسانى

تهدم السور حولها فبدا
للعين عُرْىُ الحديقة
كأنها مليحه
قد خلعت جمالها
فأصبحت قبيحه
كاسية أسمالها
مرهاء غيرت الليالى حالها(1)
تطلب عند الناس عطفاً وجَدَى
من القلوب الشفيقة
رقص البِلَى فى ساحها عريانا
وشدا الفناء لرقصه ألحانا
بهما اهتدى
عادى الردى
فعـــدا
ومحا معالمها كأن لم تعلم
وكأن فيها الطير لم يترنم
وكأن فيها الزهر لم يتبسم

وقفت الأشجار ولهى
والعشب فيها جف كرها
فهو مصفر سقيم
وهو موطوء هشيم
ذبل النبت الدميث
ونما فيه أثيث
هائج السوق خبيث
شائه غطى مظنات المسالك
فهو فيها بعد ذاك اللين شائك

أين وضاح الزهَر
أين معقود الثمَر
أين مسرى الحور
أين مجرى الماء كالنور
كلها صارت عِبَر

ألقصر فى جانبها واقف
ذاهــــلُ
رسم محيل بالأسى واجف
سائلُ
يا جنة كان النعيم بها يشدو
لحن أطيارك
والحسن فيها كان صفحته تبدو
فى وجه أزهارك
ألشمس تخشع حين تبصرك
ثكلى
ولذاك مالت عنك تغمرك
ظــــلا
والريح عائرة تمر بك
خجلى
لفك الليل بالسواد جلالا
وزوى عنك حين لاح الهلاك
وأراك النجوم لا تتلالا

يا من رأى القصر قد أقوت ملاعبه
وطلقته بلا رجعى كواعبه
غربت أقمارهُ
وأمحت أنوارهُ
فطويت مفاتن المجالس
وأنتهبت ذخائر النفائس
وأصبحت فيه كرسم دارس
فاد ركناه وأزورَّت جوانبه

أين رجالاته وجودهم
كان شفاء المنى وجودهم
زين الرجالات
محققو الغايات
ومقصد العفاة
ما أخلفت راجياً فضلاً وعودهم

عزاء أيها الحسن
فإنك لا تذل ولا تهونُ
إذا فقدت مباهجك العيونُ

(*) كل شطر من هذه القصيدة يرجع إلى بحر من بحور الشعر العربية أو إلى مجزوئه أو مجزوء مجزوئه . ولم تغفل فيه القافية مطلقاً بل بقيت متشابكة أو متلاحقة بحسب النظم . ولقد استنبطت هذه الطريقة بعد جهد ورأيتها أقرب إلى الشعر الحر والمرسل من سواها . أما ما يبدو فى هذا الشعر من التنافر فان تكرار قراءته يصقل الأذن ويكفل بأن يعيد الرنة الشعرية اليها وسوف أشرح هذه الطريقة وكيفية إمكان تحسينها بعد أن يفرغ حضرة الكاتب الأديب الأستاذ دريني خشبة من بحثه القيم فى الشعر المرسل .

(1) المرهاء : التى لم تكتحل



صديق همام ...

لأنطون تشيكوف

وجدت (ڤاندا) الساحرة ، أو كما جاء وصفها فى جواز السفر « المواطنة الشريفة ناستاسيا كاناڤكن » ، وجدت نفسها بعد خروجها من المستشفى فى حال لم تصادفها فى حياتها من قبل ، لا مأوى لها ولا مال عندها ؛ فماذا يمكن أن تفعل ؟

كان أول شىء عملته هو ذهابها إلى مصرف الرهائن ، حيث أودعت خاتمها الفيروزى، الحلية الوحيدة التى كانت تملكها ، وأخذت جزاء ذلك روبلاً واحداً

ولكن ماذا يفيدها هذا الروبل ؟ إنها لا تستطيع أن تشترى بهذا المبلغ معطفاً أنيقاً ، أو قبعة واسعة ، أو حذاء من ذى اللون الفضى اللامع وهى – بدون هذه الثياب – تشعر بأنها عريانة . يخيل إليها أن كل من حولها حتى الكلاب والحمير ترمقها وتضحك من بساطة ثيابها . وكانت الثياب كل ما يشغل تفكيرها . لم يثر اهتمامها قط التفكير فيماذا تأكله ولا أين تنام ؟

« آه لو أتيح لى لقاء صديق همام ! إذن لحصلت على بعض المال . ما من صديق يمكنه أن يرفض لى طلباً كهذا . إني واثقة »

كان هذا اتجاه تفكيرها ، ولكنها لم تلق هذا الصديق المنشود . إن من الأيسر أن تلتقى أمثاله فى المساء فى ملهى « الرينيسانس » ، ولكنهم لن يسمحوا لها بالدخول فى هذا الملهى، وهى ترتدى هذه الثياب الحقيرة ، ورأسها عار . ما ذا يمكن أن تفعل ؟

وبعد تردد طويل ، وبعد أن أنهكها طول السير والجلوس والتفكير ، استقر رأى ڤاندا على أن تلتمس ملجأ فتذهب لتوّها إلى منزل صديق همام وتطلب مقداراً من المال

وأخذت تفكر فيمن تقصد . « لا يمكننى أن أذهب إلى ميشا ، إنه رجل متزوج ... والرجل العجوز ذو الشعر الأحمر سيكون فى مكتبه فى مثل هذا الوقت من النهار » ، وتذكرت ڤاندا طبيب أسنان يدعى فينكل ، وهو يهودى اعتنق المسيحية وكان قد أهدى إليها سواراً منذ ستة أشهر . وكانت فى يوم من الأيام قد صبت كأساً من الخمر فوق رأسه وقت العشاء فى النادى الألمانى . عمها السرور إذ فكرت فى فينكل وقالت :

«لا بد أنه سيمنحنى مقداراً من المال إذا وجدته فى المنزل ؛ وإذا لم أجده فسأحطم كل مصابيح الكهرباء التى فى منزله »

كان هذا اتجاه تفكيرها وهى فى طريقها إليه

وقبل أن تصل إلى منزل طبيب الأسنان رسمت خطتها للعمل . إنها ستصعد السلم قفزاً وهي تضحك عابثة ، ثم تندفع إلى حجرة الطبيب وتطلب منه خمسة وعشرين روبلا . ولكنها ما كادت تلمس الجرس حتى أحست بهذه الفكرة تتبخر من ذهنها . وبدأت ڤاندا تحس بالرهبة والضيق ، مما لم تعهده من قبل . لقد كانت دائماً جريئة فى حلقات الشراب ، ولكنها الآن وهى تلبس هذه الثياب الحقيرة تشعر كأنها شخص يطلب إحساناً ؛ وقد لا يسمح لها حتى بالدخول . وشعرت فجأة بالذلة والمسكنة ، وأحست بالخجل والاضطراب

راكَ القلب أبهج ما تكونُ
وعين الحب هادية أمونُ
عزاء أيها الحسن

إيه يا جنة جفاها النعيم
هكذا العمر أنسه لا يدوم
كأنك نفس مات فيها غرامها
فلم يبق إلا بؤسها وسقامها
حليةُ النفس الهوى
فإذا توى(١)

عادت كغصن قد ذوى
أو ظلٍّ نجم قد هوى
على قدر ما فى النفس من خالص الجوى
يكون لها قدر ويسمو بها اللب
فإن فقدته فالفناء بها ثوى
وما قيمة النفس التى ما لها حب

يا روضة ذبلت
وخميلة خلت
أنت مثال السعد إذ فاتا
بل أنت رمز الحب قد ماتا

هكذا تصبح الحياة رفاتا
أقول للغادين لو يسمعون
هنا الهدى لو كنتم تبصرون
هلمو انظروا كيف تبلى القصور
وكيف تموت الحديقة
كذلك فيكم يجف الشعور
وتخفى الأمورُ
ويعمى البصير
وتموت الحقيقة

خليل شيبوب

(١) توى : هلك

أخذت تفكر وهي لا تجد من نفسها الشجاعة الكافية لأن تغمز الجرس وقالت في نفسها : «ربما يكون قد نسيني . كيف يمكنني أن ألقاه في هذه الثياب وأنا أبدو كمتسولة حقيرة أو عاملة فقيرة ؟» ودقت الجرس في ضعف . وسمعت وقع أقدام تقترب : إنه البواب . «هل الطبيب موجود ؟» وجهت السؤال وهي ترجو أن يكون الرد «كلا» ، ولكن البواب بدلاً من أن يجيب صحبها إلى القاعة وساعدها على خلع معطفها

وبهرتها القاعة بفخامة مظاهرها وروعته ، ولكن نظرها علق بمرآة ضخمة ، فواجهتها لترى فتاة رثة الثياب ، لا تلبس معطفاً أنيقاً ، ولا تضع فوق رأسها قبعة واسعة ، ولا تنتعل الحذاء ذا اللون الفضي

ورأت ڤاندا أنها في ثيابها البسيطة هذه ، تبدو كحائكة أو غاسلة ثياب ؛ واستغربت أنها تحس بالخجل ولا تجد في نفسها أثراً لتلك الشجاعة ، بل الوقاحة التي اعتادتها . بل إنها لم تعد تفكر في نفسها أنها ڤاندا «الساحرة» فما هي إلا ناستاسيا كاناڤكين كما كانت في الأيام الخالية

وتقدمتها الخادم إلى حجرة الكشف قائلة لها : «تفضلي بالدخول . سيأتي الطبيب بعد دقيقة واحدة . اجلسي»

وجلست ڤاندا على مقعد مريح وأخذت تفكر : «سأطلب منه أن يعيرني هذا المبلغ . ليس في هذا أقل حرج . إن معرفتي إياه قديمة . آه لو أن هذه الخادم تخرج . إني لا أميل إلى مصارحته أمامها . ما الذي يدعوها للبقاء هنا ؟»

وبعد خمس دقائق انفرج الباب عن ڤينكل . كان يهودياً طويلاً ، أسمر اللون ، ذا خدين متهدلين وعينين منتفختين . كان منظر عينيه ، وخديه ، وصدره ، وجسمه ، بل منظره كله يمجه الذوق ويثير الكراهية . كان في ملهى «رينيسانس» والنادي الألماني يبدو ثملاً ، ويبذل نقوده للنساء عن سعة . وكان واسع الصدر ، صبوراً على الأعيبهن (فمثلاً عند ما صبت ڤاندا كأس الخمر فوق رأسه ، لم يزد على أن ابتسم ورفع أصبعه في وجهها منذراً) ، أما الآن فهو يبدو جامد الحس ، جاداً ، ثقيل الدم كرئيس الشرطة ، وهو ما يفتأ يلوك شيئاً بين شدقيه

قال مخاطباً ڤاندا دون أن ينظر إليها : «هل من خدمة أستطيع أن أقدمها إليك ؟» . ونظرت ڤاندا في وجه الخادم الصارم ومظهر ڤينكل ، الذي كان من الواضح أنه لم يعرفها ، واحمرت وجنتا ڤاندا

— «هل من خدمة أستطيع أن أقدمها إليك ؟» ردد الطبيب سؤاله في ضيق مكتوم ، فهمست ڤاندا : «أحس ألماً في أسناني»

— «حسن ... أين موضع الألم ؟»

وتذكرت ڤاندا أن بإحدى أسنانها تجويفاً ، فقالت :

— «في الفك الأسفل ... على اليمين ...»

— «هيه ! افتحي فمك» . وقطب ڤينكل جبينه ، وأمسك أنفاسه ، ثم أخذ يكشف عن السن . وسأل ڤاندا : «هل تؤلمك ؟» . ثم وضع آلة معدنية فوقها . وأجابت ڤاندا كذباً : «نعم» ، وهي تتساءل في نفسها : «هل أذكره ؟ إنه من المؤكد سيذكرني . ولكن هذه الخادم ! ما الذي يدعوها للبقاء هنا ؟»

وفجأة انطلق ڤينكل قائلاً «لا أنصحك بمعالجة هذه السن . إنها لا تستحق العلاج» . وبعد فحص السن مرة أخرى ملوثاً شفتي ڤاندا ولثتها بأصابعه الملوثة بلفائف التبغ ، أمسك أنفاسه مرة أخرى ، ثم وضع شيئاً بارداً في فمها . وأحست ڤاندا فجأة بألم حاد ، فصرخت ، وقبضت على يد ڤينكل

فقال الطبيب : «كل شيء على ما يرام . لا تنزعجي . ليس لهذه السن فائدة... يجب أن تكوني شجاعة» ، وأخرج أصابعه من فمها ملوثة بالدماء وممسكة بالسن... وتقدمت الخادم ووضعت إناء تحت فم ڤاندا . وقال ڤينكل : «عليك أن تغسلي فمك بالماء البارد عند عودتك إلى المنزل ، فإن هذا سيمنع النزيف»

ثم واجهها في مظهر الرجل الذي ينتظر انصرافها لتدعه في سلام . فقالت : «نهارك سعيد . ثم اتجهت إلى الباب منصرفة . وتساءل ڤينكل في لهجة ضاحكة : «هم ! وما رأيك في أجري ؟»

«آه ! حقاً !» وتذكرت ڤاندا فمدت يدها إلى اليهودي بالروبل الذي أخذته رهناً على خاتمها

وعند ما خرجت ڤاندا إلى الطريق تضاعف إحساسها بالخجل ، ولكنه في هذه المرة لم يكن الفقر سبب خجلها . إنها لم تعد تجد الحاجة إلى قبعة واسعة أو معطف أنيق ، وإنما أخذت تجوب الطرقات والدم ينزف من فمها ، وهي تفكر في حياتها الكريهة ، حياتها المؤلمة ، والإهانات التي عانتها والتي سوف تعانيها في الغد ، وفي الأسبوع القادم ، بل طول عمرها حتى نهاية أجلها

«آه ! كم هذا مؤلم ! رباه كم هذا مخيف !»

وعلى كل حال ففي اليوم التالي ، عادت ڤاندا الساحرة إلى ملهى «رينيسانس» لترقص هناك ، وكانت ترتدي قبعة حمراء واسعة ، ومعطفاً أنيقاً ، وحذاء ذا لون فضي لامع . وقد صحبها للعشاء تاجر شاب جاء أخيراً من قازان .

صبوح الدين النهامي

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)